

## اتخاذ موقف

«معالجاتنا داخل أنفسنا كثيرًا ما تكذب،

ونحن نعزوها للسماء».

وليام شكسبير William Shakespeare، كله حسن، ما ينتهي حسنًا

William Shakespeare, All's Well That Ends Well

إن محاولات التأثير؛ من الطف إقناع إلى أكثر طرائق غسيل الدماغ إكراهًا، هي جزء من الوجود البشري مثلما هو الضوء والاضمحلال. كي نعيش معًا يجب أن نغير بعضنا؛ يقدم البشر وثقافتهم من التربية الاجتماعية للأطفال حتى عقاب المجرمين مصادر عديدة جدًا لا مفر منها من التأثير: أفكار تبدل الشبكات المعرفية المنسوجة في الجماعم. بعضها غير مؤذ، وبعضها مزعج، وبعضها مفيد؛ بعضها ملهم بروعة، كان وراء تكوين أعاجيب باهرة، من موسيقى باخ Bach إلى نظرية النسبية العامة، وبعضها مثل حلم التحكم في العقل، يمكن أن يكون مؤذيًا قاتلاً.

سوف أنظر في هذا الفصل في أساليب سحب أنياب هذا الحلم والأحلام الأخرى المماثلة؛ سوف نبدأ بالنظر في كيف يمكن أن يدعم الأفراد مقاومتهم لتقنيات غسيل الدماغ، قبل الانتقال للسؤال كيف يمكن أن تحمي المجتمعات نفسها ومواطنيها؟

## التأثير المتواصل

حتى لو أردنا أن نتجنب جميع محاولات التأثير، فإننا ببساطة لانملك الموارد الذهنية لكشف ومعاكسة كل واحد منها جميعًا. لقد قدر منذ سنوات عديدة أن «الأمريكي العادي يتعرض الآن إلى 254 رسالة تجارية كل يوم»<sup>1</sup>؛ والرقم لا يزال في ارتفاع، وهذا فقط في الإعلانات التجارية، أضف إليها الأخبار، وشبكة المعلومات، والكتب والمجلات، والأصدقاء والعائلة، والرسائل الواضحة والمبطننة التي وضعت في ساعات من البرامج التلفزيونية، وسنبدأ بإدراك حجم المعلومات التي تقصف بها أدمغتنا - معلومات موجهة إلينا بهدف تغيير عقولنا. لتخفيض القصف إلى مستوى

يمكننا فيه مراقبة محاولات التأثير الفردية، يجب علينا أولاً أن نحقق مستوى من الانسحاب الاجتماعي (لا اتصال بشري، لا حاسوب، لا تلفاز، لا مذياع، أو وسائل إعلام مطبوعة) يستحيل على الجميع عدا أشد الباحثين عن الانعزال عزماً.

يختار عدد قليل جداً من الناس أن يعيش وحده بالكامل، وبالنسبة إلى معظمهم، تقع أغلب محاولات التأثير في النهاية الدنيا من الطيف، مستلزمة طاقة قليلة لتوليدها؛ إنها خفيفة جداً - أو واضحة جداً - بحيث إنها تبدو فقط من أن لآخر جديرة بأن نتحداها. في أكثر الأحيان نذهب مع التيار، مقتنعين أننا لا نملك الوقت، أو الطاقة، أو الحافز للتصرف بغير ذلك. عدم الاهتمام هذا مفيد ومُشكِّل في آن واحد لفنيي التأثير؛ إنه مفيد لأولئك الذين يريدون تغيير العقول من دون أن يبدو أنهم يفعلون ذلك، باستعمال التكرار قطرة قطرة لتعزيز الافتراضات المعنوية ((الاستهلاك جيد)، (أنت ما تملك)، وهكذا)، وهو مشكل عندما يكون الهدف هو تمييز رسالة واضحة من بين جميع الرسائل، لتحريض قدرة المستهدف على المراقبة والارتكاس بحيث تستوعب الرسالة، وينظر بها، وتُشَمَل في المشهد المعرفي للمستهدف. في الإعلانات - على سبيل المثال - قد يجمع الإعلان التجاري بين المداخلتين؛ فيجذب السطح الجذاب الانتباه (باستخدام السرد قوي، أو المزاح، أو موسيقى أو ألوان مميزة،... إلخ)، في حين يقوي البنيان الأعمق المعتقدات المجتمعية ((سيدة في المنزل) يشجع (القيم العائلية) التقليدية؛ (رجل في المكتب) يؤكد أهمية التوظيف براتب؛ وهكذا)، حتى لو لم ينجح الجذب السطحي، فإن الجذب الأعمق، عادة رسالة أو رسائل محافظة، سوف يتعزز.

يحمينا عدم المبالاة، والجهل، وأن نكون مشغولين، من محاولات كثيرة لتغيير عقولنا، إضافة إلى ذلك لا يعمل فنيو التأثير في فراغ مجتمعي. دفعنا مبدأ تقسيم العمل الذي وصف أهميته للمجتمعات الرأسمالية آدم سميث Adam Smith قبل أكثر من مئتي عام في كتابه ثروة الأمم، إلى تحويل معظم مراقبتنا للتأثير إلى المختصين، فتتوقع من الصحفيين أن يرفعوا علم الإنذار لتبنيها إلى التلاعب الحكومي، وتتوقع من أخبار التلفاز أن تنشر تقارير عن أخطاء محرري الجرائد (والعكس بالعكس)؛ ولدينا وكالات مهمتها تنظيم ما نراه على التلفاز، وهكذا. تشكل التوقعات التي لدينا عن الاختصاصيين المتنوعين الثقة التي نضعها بهم، وما دمننا مستمرين في الثقة بهم فإننا لا نشعر بالحاجة إلى تكرار جهودهم على المستوى الفردي<sup>2</sup>.

ولكن، في حالات عديدة، يمكن أن تتخذ محاولات التأثير كلاً من سيسيليا (الأنثى الوحش التي تلتهم البحارين أمام كهفها) والمختصين، وكاربيدس (الدوامة أمام باب الكهف) والأدمغة المشغولة أو غير المكرثة، يستخدم بعضها التسلل لتجاوز دفاعاتنا، ويستخدم آخرون القوة. وفي المستقبل - كما رأينا في الفصل السابق - قد توفر التقنية الحديثة سلاحاً إضافياً للتأثير: التفاعل المباشر مع الدماغ المستهدف. من المؤكد أننا قد لا نرغب في مقاومة كل أشكال صنع العقول، لا أحد كامل جداً بحيث لا يمكن أن يستفيد من أفكار جديدة، ولا كل فنيي التأثير يقصدون (أو يسببون) لنا الأذى، لكن بعضهم يفعل؛ كيف نستطيع إذًا أن نحمي أنفسنا؟

## اللقاحات ضد الميميات

«ذلك أن المعرفة نفسها قوة».

فرانسيس بيكون Francis Bacon، تأملات دينية، (من البدع)

Francis Bacon, Religious Meditations, 'Of Heresies'

إحدى وسائل إلغاء تأثير بنادق فنيي التأثير هو اتخاذ وسائل وقائية؛ فإذا كانت جين Jane المسيحية الملتزمة تعتقد أن أغاني روك معينة رسالة من الشيطان، فإن رغبتها في تجنب أن تتأثر (بأمير الظلام) قد تدفعها لإطفاء المذياع عندما تعزف الأغنية، أو لإتلاف تسجيلاتها، أو حتى شن حملة لمنع عزفها للعموم، وبدلاً من ذلك قد تستمع لأغاني الروك وتحللها بدقة، على أساس أنه من الأفضل أن تعرف العدو. قد تولي مزيداً من الاهتمام لطقوسها الدينية أمله أن يكسبها الالتزام المخلص رضى الله وحمايته. وقد تبحث عن آخرين لديهم وجهات النظر نفسها، وقد تكون لديهم نصائح في كيفية الحماية من التأثيرات الشريرة (في أغاني الروك أو في أي مكان آخر)، وقد تشكل حتى فرقة روك مسيحية خاصة بها.

بعبارة أخرى، يمكن أن تتخذ جين خطوات عدة لتقليل خطر ما تتصور أنه سلاح مؤذ للتأثير؛ فتستطيع أن تتجنب المواقف التي تتعرض فيها للتأثير؛ ويمكنها أن تبحث عن معلومات تغني فيها المناطق المعينة من مشهدها المعرفي، محولة نفسها إلى خبيرة متحمسة جداً وماهرة في اكتشاف مثل هذه المحاولات، أو تستطيع أن تزيد التزامها بالمعتقدات التي تعلم أنها لا تتناسب مع الرسالة التي تزودها محاولة التأثير. بتغيير سلوكها الخاص؛ بالبحث عن أفكار جديدة أو دعم اجتماعي للعقائد التي تحملها سابقاً، تصبح جين قادرة على استعمال تنبؤاتها

المبنية على المعلومات عن أساليب الشيطان لمنع اليوم الواحد الشرير Evil one من التأثير فيها؛ إنها تحارب الأفكار بالأفكار، مستخدمة معتقدات لتلقيح دماغها (أو ربما أدمغة الآخرين المعرضين للتأثير) ضد ميميات يمكن أن تكون غازية وترى أنها مؤذية (كما رأينا في الفصل الثالث، الأفكار بوصفها وحدات (ميميات) memes يمكنها مضاعفة نفسها والانتقال عن طريق التقليد من دماغ إلى آخر).

إذا كانت جين محفزة بقوة للحفاظ على عقيدتها المسيحية وطرده الشيطان، فإن شبكتها المعرفية (المتعلقة بالشر) و(المتعلقة بالعقيدة) سوف ترتبط بعواطف قوية تحرض الاستجابة الآلية لمنبهات معينة، وسوف تتحكم معتقداتها القوية كثيرًا في سلوكها، مثلما تدور أفكار وأفعال من يعاني القمه العصبي حول الطعام. سيصعب على الأفكار الجديدة، خاصة المناقضة، أن تتجذر في هذا المشهد المعرفي المعادي، حيث إن الطاقة التي يجب أن تقويها تتسرب بعيدًا بسبب الشبكات المعرفية القوية التي تؤمن (دفاعًا متعصبًا). على الرغم من مخاوفها، فإن جين ربما تكون آمنة من أغاني الروك؛ قد يكون قلقها متعلقًا أكثر بالأشخاص الآخرين وليس بها؛ سيتطلب الأمر صانع عقول ماهرًا - أو جهدًا حازمًا حقًا من جانب الشيطان - لكسر عقيدتها، وهو ما يحميها من محاولات التأثير عندما تحدث، ووفق ما رأينا في حالة الأسقف هانز باركر Hans Barker، فإن المعتقدات القوية كثيرًا ما تثبت أنها دفاع جيد ضد غسيل الدماغ.

لكن لسنا كلنا أقوىاء مثل جين في معتقداتنا، ولا نستطيع أن نستعمل دفاع التعصب؛ لكن ذلك لا يمنعنا من اتخاذ وسائل أخرى؛ فمثل جين، نستطيع أن نتوقع سلوكنا وسلوك الآخرين، وهذا يعني أننا نستطيع استعمال المعرفة، و/أو الدعم الاجتماعي، للتخفيف من أثر محاولات التأثير قبل أن تحدث، أو لحماية أنفسنا ضدها عندما تحدث. إذا كانت ميري تعرف من تجارب مريرة أنه بعد تناولها أدوية عدة، فإنها ستدمن عليها، فإن رغبتها في تجنب العواقب المحتملة (الكارثية) قد تدفعها للتوقف عن تناول هذه الأدوية. إنها تتوقع سلوكها في حالة معينة، وتغير نفسها بحيث تتجنب هذا النوع من المواقف، على عكس سلوك (نختار أن نخسر) الذي بحثناه في الفصل التاسع. لقد استطاعت إدارة الرابط بين الإشارات الاجتماعية التي حرضت في السابق سلوك تناول الأدوية وشبكة معرفية جديدة، شبكة تستدعي ذكريات الحرج السابق لتطبيق استجابة (توقف وفكر). بشكل مماثل، إدراك احتمال أن صنع العقول أساسًا هو أول خطوة لتنبؤ استجابتك، وتغيير دماغك وسلوكك حسب ذلك.

## (توقف وفكر) : ترياق التأثير

يشمل كثير من الأساليب التي تقاوم محاولات التأثير تحريض آلية (توقف وفكر) (انظر الفصل العاشر)، والتفكير الناقد، والتشكيك، والفكاهة، أمثلة على ارتكاسات (توقف وفكر). يحلل التفكير الناقد والتشكيك الرسالة، فاحصين منطق حججها، واستعمال اللغة العاطفية، ودقة العبارات الواقعية، وهما كذلك يسألان سلطة وحافز مصدر الرسالة؛ تتحدى الفكاهة أيضاً السلطة، وإن يكن عن طريق تأكيد العاطفة بدلاً من المحاججة.

تعتمد استجابة (توقف وفكر) على (واقفنا)؛ على حقيقة أن كلاً منا، طوال عمرنا، ضحية سياق ذكاراتنا وفي الوقت نفسه منغمس بالتجربة المستمرة لما يسميه جورج ستاينر George Steiner «العالم اليومي الواقعي، الحرفي، الفعلي»<sup>3</sup>. تختلف طريقة اندماج هذين العاملين معاً مع مرور الوقت. في السينما، إذا كان الفلم مثيراً للاهتمام بأي طريقة، فإنك ستكون على الأغلب منغمساً في الأحداث، وقشرك البصري يعمل بكامل طاقته، والتنبيه يأخذ أولوية على التفكير، أما في عصر يوم جمعة حار في المكتب، وأنت عالق في اجتماع ممل، فقد تجد أن التوازن يميل في الاتجاه الآخر وأنت تتجرف في أحلام اليقظة. إذا لم يكن هناك مورد كاف لإبقاء دماغك مشغولاً، فإنه سيرجع إلى موارده الداخلية الخاصة من الذاكرة والتفكير. إذا كانت ذكرياتك سعيدة، حسنة وجيدة، لكنك في موقف أنت فيه غير واثق وغير مسرور، مثل زنزانة سجن، فإن التفكير بمأسيك لن يفيد أبداً في رفع معنوياتك، وأحد الحلول هو دعم مستويات الإشارات القادمة؛ تقوم الأدمغة بذلك آلياً، وهذا هو السبب في أن الأشخاص المشغولين لا يلاحظون حركة الساعة، إلا عندما يكونون عالقين في اجتماع ممل، لكن إيجاد شيء مثير للاهتمام في بيئتك يمكن أيضاً أن يكون إستراتيجية بيئية.

في كتابه غسيل الدماغ، شرح إدوارد هنتر Edward Hunter كيف استعمل سجناء الحرب الأمريكيون في كوريا جميع هذه الطرق لمقاومة غاسلي الدماغ الشيوعيين، وبعض السجناء الذين عزلوا مدة أشهر من الزمن وحرّموا أي وسيلة لإبقاء أنفسهم مشغولين، ابتدعوا وتذكروا الأشعار -التي كثيراً ما كانت مرحلة- عن أحوالهم، محللين لماذا يعاملون بهذه الطريقة، وما الذي يأمل أسروهم أن يحققوه؛ استخدم بعضهم خياله للحلم بكذبات يمكن تصديقها يخبرون المحققين بها، جاعلين لعبة من هذه السياسة (مرتفعة الخطر) في خداع العدو من دون أن يقبض عليهم

وهم يفعلون ذلك، معززين ثقتهم الخاصة ووضوح الهدف في كل مرة تُصدَّق فيها كذبة، ودرس بعضهم حتى فن طيران الذباب العابر؛ في محاولة للتخلص من الملل.

## الإدراك والمقاومة

«ما احتمال أن مجتمعات المستقبل سوف تشمل علم التحكم في سياسات الحكم؟ الجواب

كما نعتقد - يعتمد كثيراً على الخيارات التي يقوم بها الناس الآن».

شيفلن وأوبتون Schefflin and Opton، التلاعب بالعقل.

Schefflin and Opton, The Mind Manipulators

القوة، والتسلل، والتقنية الحديثة؛ ثلاث طرائق قد يجربها فني التأثير لتغيير العقول. بالنسبة إلى المستهدف، أول تحد هو إدراك أن هناك محاولة يمكن على الأقل أن تحمل إمكانية الأذى للمستهدف قد أجريت؛ يحرض ذلك مفاعلة كافية لإحداث ارتكاس من نوع (توقف وفكر). وبالنسبة إلى التقنيات التي تستعمل القوة، وبالنسبة إلى التقنيات الحديثة، إدراك أن هناك محاولة ليس عادة مشكلة. وبالنسبة إلى طرائق التسلل، الوصول إلى الأفكار الحامية - مثل العقائد البديلة قوية الإيمان، أو المواقف المتشككة أو الناقدة، أو التجارب السابقة عن محاولات تأثير مماثلة - يمكن أن يثبت محرضات ملائمة لحماية دماغ المستهدف، كما وصفنا سابقاً، ولكن قدرتنا على اكتشاف الخداع بعيدة عن أن تكون مثالية<sup>4</sup>، وما يسبب مشكلة بالخاصة هو محاولات التأثير التي تحدث بالتدريج على امتداد وقت طويل، كما في مثال العنف الأسري الذي بحثناه في الفصل الخامس؛ فقد يكون من الصعب إدراك محاولة التأثير بهذه الصورة، خاصة إذا كانت الضحية محفزة بقوة على عدم الإقرار بها، لكننا نستطيع أن نعزز مناعتنا الخاصة بطرائق متنوعة: بالإعلان عن الحالات التي يحدث بها تأثير مخادع وعقابها؛ أو التمرُّن على التفكير الناقد؛ أو المشاركة في المناظرات العامة؛ أو التعلم من تجارب الأشخاص الآخرين. بالتأكد من أننا واضعون في معتقداتنا، فإننا نقلل من فرص أنها يمكن أن تعدل بعلمنا أو من دونه.

الدرس الذي تعلمناه في الفصل الحادي عشر هو أنه لا يوجد أي شيء، حتى في عقيدة الحتمية العلمية، يمنعنا من الخروج وفعل أي من وسائل الحماية هذه، أو كلها، حالما تخطر فكرة فعل بذلك على بالنا. نحن عناصر فاعلة، ولسنا مستقبلين منفعلين، ونستطيع بالتأكيد أن نغير

أدغمنا إذا كنا نفضل ذلك على أن يغيرها أشخاص آخرون. نستطيع أن نتعلم أيضاً عن سلوكنا الخاص، ومن ثم تحسين مهارتنا في تقرير المصير؛ فهمنا لقبليتنا للتأثر بالعوامل الاجتماعية، وإجراء تصنيف المجموعة الداخلية/المجموعة الخارجية، والتأثيرات المعززة للأنماط في التوتر، وغيرها، قد تجعلنا أكثر إدراكاً لما يفعله التأثير بنا.

حالما يتنبه الإدراك، فالتحدي الثاني هو مقاومة محاولة التأثير؛ صنع العقل بالتسلل الذي يعتمد لنجاحه على كونه خفياً، لا يمكن أن يخفق فحسب، وإنما أن يؤدي إلى رد فعل معاكس خطر إذا أُدرِك؛ فقد تُخبر جين Jane التي تتابع بحذر ألبوم الروك الجديد، من قبل صديقتها بالأثقل؛ لأن البحث أظهر أن الأغاني المشبوهة خالية من الرسائل الشيطانية، وبالاعتماد على رأيها أو رأي صديقتها، قد تقبل ببساطة هذه الحقيقة، ولكن إذا توقفت لتفكر فقد تقرر أن صديقتها تحاول فقط طمأنتها، فتسأل عن مصدر الخبر، أو مَنْ بحث؛ فإذا كانت السلطة موثوقة (كالخوري في منطقة جين Jane)، فإن محاولة التأثير قد تكون أثبتت في النهاية أنها ناجحة، ولكن إذا تبين أن المصدر هو -مثلاً- عالم معروف بوجهات نظره الإلحادية، فإن جين لن ترفض الرسالة فحسب: عدم اعتبارها للمصدر يعني أنه قد ينتهي بها المطاف أكثر اقتناعاً بأخطار موسيقى الروك.

كما بحثنا سابقاً، يتضمن كثير من حالات غسيل الدماغ التقليدي الإكراه أو حتى التعذيب الشنيع. تعرض القوى التي لا تحاول تجنب إدراكها، المفاعلة والمقاومة التي يجب عندها التغلب عليها؛ قد تستطيع الضحية المحفزة تحفيزاً كافياً أن تقاوم حتى التعذيب، سواء بالانسحاب النفسي من الموقف (الانفصال) أو بالتمسك بفكرة قوية أو صورة قوية (كالشهيد الديني الذي يتفكر في الله ليتحمل الألم). الخطة البديلة قد تكون المطاوعة قصيرة الأمد، كما أبدى السجناء الأمريكيون في حرب كوريا الذين تحولوا ظاهرياً للشيوعية، ليعادوا اتخاذ مواقفهم السابقة حالما أطلق سراحهم. في الحقيقة، كثيراً ما كان تمييز المطاوعة من التحول مشكلة لأصحاب المذاهب الفكرية الذين يستعملون طرائق الإكراه.

لقد خمنت في الفصل السابق في الإمكانيات المحتملة للتقنيات الحديثة لجعل حلم التحكم في العقل يتحقق، ولكن كثيراً ما يمكن استعمال التقنية في أكثر من طريقة واحدة؛ وليس جميع مستعملي التقنيات الحديثة أو مصمميها تواقين للهيمنة على الآخرين. تتبع كثير من التطورات في التقنيات البشرية للصراع نمط سباق التسلح، المشاهد بصورة شائعة في التطور الذي عندما

تطوّر فيه أسلحة (أو دفاعات) جديدة من قبل أحد الطرفين سرعان ما يجاريه تطور سريع لدفاعات (أو أسلحة) ينتجها الطرف الآخر. قد يستمر صنع العقول الذي هو في الأساس صراع بين المستهدفين والمعتدين على هذا المنوال؛ ربما سيستمر كل من الطرفين بالتناقص إلى أن تنفذ الموارد، أو ربما تتغير الأحوال السياسية مع تخلي الكائنات البشرية عن حلم غسيل الدماغ (نحن - على كل حال- نكبر بمشقة على أحلامنا، مثل أفكار التفوق العرقي الذي كان مستعملًا لتسويق مؤسسات العبودية). في غضون هذا، قد ينتج حقل الدفاع الدماغي محصولًا رائعًا من العجائب، من الأدوية المضادة للعقائد أو درع كهرومغناطيسي لحماية أدمغتنا من التداخل الكهرومغناطيسي.

## اعوجاج الأفكار

نتقل الآن من حماية النفس إلى موضوع متعلق به؛ هو كيفية نزع فتيل آثار غسيل الدماغ في الآخرين؛ مثل الفيروسات، كثيرًا ما يوجد سلالات عديدة ذات قدرات مختلفة، والسلالات الأشد قوة -أفكار أثرية معينة- خطيرة جدًا بحيث إنها يمكن أن تهيمن على الدماغ المصاب بالإنتان، أو تدمره، مثل فيروس الإيبولا يمكنها أن تسبب معاناة هائلة لضحاياها؛ كل من المصابين أنفسهم والأبرياء الذين يؤذونهم. على عكس معظم الفيروسات، فإن الأفكار الأثرية قد تلقى ترحاب المستهدفين الذين قد يقاومون بشدة محاولات تطهير الإنتان، ويستخف كثير من الارتكاسات العدائية للطوائف الدينية بدرجة تليبيتها فعلاً لحاجات أعضائها، مستهوين التزامًا جماعيًا حقيقيًا.

يصبح الشخص المصاب بالإنتان فكرة أثرية -في الحالات المتطرفة- أشد التشوهات البشرية إثارة للرعب، وهو المتعصب لموضوع واحد؛ حيث تمتص الشبكة المعرفية المهيمنة الطاقة من المعتقدات المتنافسة، مغلقة بالتدرج أفق الشخص، فيتشوه المشهد الفكري ويضيق نطاقه، ويصبح تفسير كل شيء منسويًا إلى الفكرة المهيمنة، وهو ما ينتج منه «شخصية قاتمة منكمشة»<sup>5</sup>. تعتقد المراهقة المصابة بالقمه (نقص الشهية) العصبي، أنه من المستحسن أن يكون المرء نحيلًا، ويؤمن كثير منا في الغرب المعاصر هذا الاعتقاد بدرجات متفاوتة من القناعة، لكن المصابة بالقمه العصبي مؤمنة إيمانًا شديدًا بذلك حتى إن الجهد اللازم للسيطرة على جسمها يمكن أن يصبح أكثر أهمية من الصحة، أو حتى الحياة، ويقود هذا إلى التركيز في الطعام والتحكم فيه، ليصبح مع مرور الوقت جهدًا آليًا من الهوس المجهد إلى عادة متأصلة جدًا تصبح

فعلياً من أسس الشخصية. القول إنها تفكر في الطعام معظم الوقت هو أقل ما يقال عن مركزية السيطرة على الطعام في عقل المصاب بالقمه المزمن، وكما في بعض اضطرابات الشخصية، يصبح من الصعب فالأصعب تخيل كيف سيكون شكل الشخص لو لم توجد هذه المشكلة.

إحدى أكثر الأفكار الأثرية سمية في تاريخ البشرية هو مفهوم السلطة المطلقة التي تلغي جميع الاعتبارات الأخرى الأخلاقية أو القانونية؛ فقد استعملت هذه الفكرة الأثرية الخاصة، ولا تزال تستعمل اليوم، لتسويغ بعض الفظائع المثيرة حقاً للاشمئزاز. بالتعامل مع الكائنات الحية بوصفها وسيلة بدلاً من أن تكون غاية في حد ذاتها، فإنها تضع حياة الإنسان، وجودة الحياة، في مرمى هدف مجرد ما، سواء كانت مترافقة أم لا مع نظام شمولية صريحة، فإنها مثال واضح على التفكير الشمولي.

كما أن المريض المصاب بفيروس نقص المناعة البشرية قد يموت بسبب الإصابة بالتهاب رئوي ليس مميتاً في العادة، كذلك فإن الأفكار الأثرية خطيرة خاصة عندما تكون مجتمعة؛ السلطة نفسها هي فكرة نستعملها طوال الوقت من دون آثار جانبية، لكن قوّهاً إلى سلطة مطلقة، وضعها مع نظرة شمولية ما لعالم أفضل، ويمكن أن تكون النتيجة مميتة: الشخص الذي يعتقد أن لديه مهمة لجعل الرؤية تتحقق، الذي لا يفكر عملياً في أي شيء آخر، والذي تغلب فيه دوافعه المرتبطة بالرؤية حتى على غرائزه بحماية النفس، وليذهب كل من يقف في الطريق إلى الجحيم (حرفياً بالنسبة إلى السلطات الدينية). هذا في أفضل الحالات هو المتطرف الصاحب المثير للغضب الذي لا يمكن التفاهم معه، الذي يقول إننا يجب أن نقتل عالمياً لإنقاذ جرو، أن نقتل كاتباً للدفاع عن معتقدنا، أو أن نقتل الملايين لنضع نظاماً عالمياً جديداً. في أسوأ الحالات، هي الفدائي، أو المتشدد، أو المفجر الانتحاري، الذي لا يبدد غضبه وإحباطه بالضجيج، لكنه يستعملهما وقوداً للعنف الإرهابي.

كيف نستطيع أن نقلل تهديد هذه العقول المشوهة؟ لا يوجد جواب شاف؛ لأن الأفكار الأثرية تتفاوت في درجة تسببها في القتل، وتستمد (دماء حياتها) من مصادر متنوعة، لكن هذا لا يعني أننا بلا عون. تستمد الأفكار الأثرية طاقتها جزئياً من كونها مجردة، وغير قابلة للتحدي، وبسيطة، وجزئياً لأنها تتوافق مع معتقدات موجودة سابقاً، وجزئياً لأنها ترتبط بعواطف قوية، ولنزع فتيلها (على الأقل إلى أن تقدم لنا التقنيات الحديثة أساليب أكثر مباشرة لتغيير الدماغ)، يمكننا إما أن نتحداها مباشرة فنحاول أن نقلل المعتقدات المترافقة التي تعطيها الدعم أو العواطف التي تعطيها القوة، وإما أن نحاول منعها من الترسخ بالأساس في المقام الأول.

## فك القبضة الخانقة

دعونا نتخيل رجلاً شاباً اسمه سام Sam، تمتلكه فكرة أن قتل أعضاء القبيلة المجاورة هي أفضل طريقة لتحقيق الحرية لشعبه، وهو مخلص للحرية ومستعد للموت من أجلها، والصراع بين الجماعتين صراع قديم ومرير. نذهب إلى سام Sam (أو إذا كنا حذرين نرسل له ممثلين عنا) ونتحدث معه عن أفكاره، نستمع إليه وهو يصرح بموقفه، ثم نشير إلى بعض صعوبات الموقف، ما الذي يعنيه تماماً بمفهوم الحرية؟ كم شخصاً يتوقع أن يقتل؟ وهل هذا ممكن عملياً؟ هل يدرك أن القتل فقط سيجعل القبيلة الأخرى أكثر عناداً وأكثر ظلماً، وهو ما سيدخل كلا الطرفين في دائرة من العنف؟ هل يظن أن التفاوض المنطقي أفضل؟ وهل نستطيع أن نعرض عليه أن نكون وسطاء؟ إن استماع سام Sam لنا بأدب ومن ثم تجاهلنا، أو تعبيره عن رأيه بصورة مباشرة أكثر، قد يكون معتمداً على تقديره لأهميتنا. أقل ما سيقوله احتمالاً هو: «حسناً، نعم، إنكم على حق، لم أفكر بهذا؛ يجدر بكم أن تسرعوا إلى جيراننا حاملين اعتذاري، وسوف نبدأ بالتفاوض الآن مباشرة».

بالطبع، نحن لسنا أعضاء في مجموعة سام Sam الداخلية، ونحن بالتأكيد لسنا القادة الذين خططوا لحملة العنف التي يشترك بها سام Sam، لذلك دعونا نتخيل أننا بصورة ما نستطيع أن نفتح أحد هؤلاء القادة، السيد س، وهو مفكر ذو تأثير كبير يحبه سام Sam جداً، لنرى الأخطاء في طريقته، ونخبر سام Sam بها. هل سيتوب سام Sam عندها، وبيتعد عن العنف؟ ربما لا. الأفكار التي جعلت من سام قاتلاً هي أفكار أثيرية، مترسخة في تفكير شمولي، وكي يكون السيد س قد وضعها في المقام الأول يجب عليه أن يؤكد بساطتها وسلطانها المطلقة على الصورة التي انحدرت منه. لا يستطيع الآن أن يبدو وكأنه غير رأيه بالكامل دون أن يقوض من سلطته، مجبراً سام Sam على الاختيار بين ترك معتقداته العزيزة التي وضع فيها كثيراً من الجهد والطاقة، وبين تقرير أن السيد س قد ضعف، أو جن، أو أصبح خائناً؛ قد يكون سام Sam استثمر كثيراً في مبادئه بحيث لن يتخلى عنها بسبب تعقيد الحياة الواقعية، وتغيرها، وعدم كمالها، ولعل هذه هي الأسباب التي دفعته لتبني هذه المبادئ؛ أحد مسرات الأفكار الأثرية هي قدرتها الظاهرة على التفسير، وعلى جعل كل شيء يبدو بسيطاً. يضع تقسيم العالم إلى قسمين واضح الحدود مجموعتي (نحن) و(هم) عبئاً أقل بكثير على المصادر المعرفية للمرء من الإقرار بتفاصيل الاختلافات البشرية.

التحدي المباشر، سواء من أعضاء المجموعة الخارجية أو المجموعة الداخلية، قد لا يكون أفضل طريقة لنزع فتيل الأفكار الأثرية. مثل القوة، يصطدم التحدي مباشرة بمشكلة المفاعلة، فلا بد من عمل خفي، على مدة طويلة من الزمن، وأحد الأساليب هو التعامل مع أفكار سام Sam الأثرية على أنها مجموعة متداخلة من الشبكات المعرفية، تكتسب فيها مبادئ أساسية مركزية قوتها جزئياً من كونها مدعومة بمعتقدات أخرى، وقد يكون بالإمكان إضعاف هذا الدعم؛ فقد لا يكون سام اجتمع بعدد كبير من أعضاء القبيلة المعادية، وهنا قد يفيد نشر فكرة إنسانيتهم، وقد يكون من المفيد أيضاً إعادة توجيه عدوانيته إلى مخارج أقل إلحاحاً (في بريطانيا استخدام كرة القدم طريقة شائعة). قد تكون المبادرات التعليمية والسياسية قادرة على توسيع آفاقه المعرفية، مقدمةً بدائل لعالمه الحالي المحصور، ويمكن أن تُوفّر له الدوافع لاتباع طريقة أكثر سلاماً في التصرف.

ليس من المحتمل أن تنجح طريقة التقطيع هذه وحدها، وكي تنجح تحتاج إلى المساعدة من مداخلة أخرى؛ هي محاولة خفض العواطف التي تعطي أفكار سام Sam الأثرية قوتها، ولعل هذه أكثر الطرائق نبذاً؛ لأنها أفساها؛ فهي تتطلب مناظرة عامة مفتوحة لتحليل المشكلات (وهو ما يعني الاستماع فعلاً لسام وأعدائه)، متبوعة بتدخلات سياسية مفصلة، طويلة الأمد في كثير من الأحيان، ولا شك أنها باهظة التكاليف لمعالجة المواضيع. لا يستيقظ الناس صباح يوم ما ويفكرون في أنفسهم «حسناً، سأكون اليوم متعصباً متعطشاً للدماء»، بل يتبنون أفكاراً أثرية لأنهم يدفعون إلى ذلك؛ لأن القوى الخارجة عن سيطرتهم تحرض الشدة والعواطف القوية لديهم، وهو ما يتطلب استجابة مبسطة. الأفكار متوفرة، مسوّق لها، وتستغل وكأنها دواء شاف لجميع الأمراض (لو أننا نستطيع فقط أن ننال حريتنا، كل شيء سيكون حسناً). يريد سام Sam حياة أفضل له ولأولاده، يتوق لذلك بشدة حتى إنه مستعد للقتال من أجل ذلك، تماماً لأن حياته الحالية تعيسة.

تحسين حياته -لجم القبيلة المجاورة المعتدية، والإصرار على أن حقوق سام يجب أن تحترم، إجراء (وقبول نتائج) انتخابات محلية، ووجود إعلام حر، والإصلاح والحقوق، وزيادة حريات سام Sam الفردية عامة- تعزز احتمال أن يضعف قناعاته أكثر بكثير من محاولة التمر عليه أو إقناعه بتركها.

ماذا عن الوقاية؟ إحدى طرائق تقليل تأثير الأفكار الأثرية هي تقديم منافسة كافية، وإجراء مناظرات عامة على نطاق واسع؛ ذلك أن أحد المظاهر الشائعة لفسيل الدماغ؛ من

معسكرات تدريب الإرهابيين، إلى الطوائف الدينية، إلى العنف الأسري، ليست ببساطة أنها تغرس عددًا (قليلاً عادة) من المعتقدات التي يكون الإيمان بها قوياً، وإنما تضيق الأفق الذي يرافق العملية. رأينا في الفصل الثامن أن توافر عدد أكبر من الشبكات المعرفية يميل إلى إضعاف أي شبكة معرفية منفردة. بتشجيع التشييت ومناقشة الأفكار الجديدة؛ وتوفير التعليم وحرية الوصول إلى الإعلام المستقل لكل مواطن؛ وتعليم التاريخ، والتفكير الناقد، وعلم النفس الاجتماعي بطريقة ليست فقط سردياً للوقائع؛ وبتثقيف أنفسنا عن الثقافات الأخرى؛ وبتشجيع التهكم والتعليق والنقد؛ نستطيع -إضافة إلى طرائق عديدة أخرى- أن نقدم بيئة أغنى معرفياً تساعد على إضعاف جاذبية النماذج الشمولية.

كانت المناقشة حتى الآن ضمن إطار كيف يمكن أن يقاوم الأفراد الأفكار المؤذية وأولئك الذين يقفون وراءها، وقد أكدت أننا نستطيع القيام بأشياء كثيرة لحماية أنفسنا. القول بأن فكرة أو سلوكاً يتسمان بالعاطفية لا يعني أنه لا يمكن التحكم فيهما؛ إذا كانت المعرفة البشرية -كما حاججنا في الفصل التاسع- مخضبة بالعاطفة، فإن العكس أيضاً صحيح؛ نستطيع أن نغير كلاً من دوافعنا وأهدافنا التي حُفِّزنا للسعي وراءها.

## المقاومة على نطاق واسع: من الأفراد إلى الجماعات

الفردية لها حدود، فيمكن -على سبيل المثال- أن يتبنى الأفراد ويتمسكوا بمعتقدات سيئة بالنسبة إليهم، ولكنهم لا يستطيعون التخلص منها وحدهم؛ فالمعتقدات بالنسبة إليهم قيم إيجابية (شبكاتهم المعرفية مرتبطة بعواطف إيجابية، مثل الشعور بالصدقة أو الاطمئنان). بعبارة أخرى، لا يلزم أن تعكس العواطف المترافقة مع الاعتقاد مصالح حاملها طويلة الأمد، وقد ذكرنا مثلاً سابقاً في القمه العصبي؛ إذ يمكن أن تنظر (وبحالات أقل ينظر) المراهقة التي تعاني القمه العصبي لاعتقادها بالنعافة على أنها إيجابية؛ ينظر المراقبون إليها على أنها إيجابية خطيرة. من ناحية أن المرضى بالقمه العصبي يموتون عادة في عمر أبكر، ويعانون مشكلات صحية شديدة، ويعيشون حياة مقيدة، كثيراً ما تكون تعيسة، فإن المراقبين على حق، والمصابة بالقمه -أيًا قالت- على خطأ؛ واعتقادها مضر لها. هذا جزء مما نقوله عندما نصف القمه العصبي على أنه مرض عقلي: لا يعود الناس المصابون بالقمه العصبي قادرين على متابعة مصالحهم الموضوعية الخاصة (الصحة، الحرية، السعادة، إلخ)؛ لأن الأهداف الذاتية

(النحافة والتحكم في الطعام) تهيمن بشدة على المشهد المعرفي بحيث إن هذه الأهداف تملك مفاتيح التفكير والسلوك.

بعبارة أخرى، كما رأينا في الفصل الرابع، وسم شخص بأنه مريض عقلياً هو - جزئياً - حكم اجتماعي. عندما يصل الأمر إلى المحك، فإن نظرة الأغلبية الموضوعية لما هو جيد أو سيئ بالنسبة إلى الناس يهيمن على إحساس الفرد الذاتي بما هو جيد أو سيئ بالنسبة إليه أو إليها، ويتزامن هذان الحكمان في معظم الأحيان (للمصالح الموضوعية والذاتية، على التوالي). نحن ننتخب السعادة، أو الحرية، أو إرضاء الذات، ونتوقع من جيراننا أن يقوموا بالشيء نفسه.

## النسبية

«أضف أن أسلافه السيثيين كانوا الناس الصادقين الوحيدين الذين وجدوا أبداً على الأرض، وصحيح أنهم قد أكلوا البشر، لكن ذلك لم يمنع أن يكون لأمتهم احترام عظيم».

فولتير Voltaire. كتاب القدر.

Voltaire, Zadig

لكن من يستطيع أن يقول إن رأي الأغلبية هو الصحيح؟ هذه مجادلة نسبية لأننا لا نستطيع أن نقارن الثقافات، لأن ما قد يكون جيداً لبيتر Peter قد لا يكون جيداً لبول، ولأنه لا يوجد مجتمع من باتريكات (جمع باتريك) يراقب ويستطيع القول إن بول Paul محق وبيتر Peter مخطئ. طبقت النسبية بصورة واسعة على الأخلاقية لتقويض فكرة السلطة الأخلاقية المطلقة (التي كثيراً ما تكون دينية)، ووسّع هذا أيضاً للدعاء بعدم التكافؤ الأخلاقي، هذا يعني إذا كانت الثقافة أتحرق تقليدياً الأطفال غير المرغوب فيهم مساء السبت، فإن اعتراض الثقافة ب سيعد سارياً لأعضاء المجموعة ب ولكن ليس لأعضاء المجموعة أ، وفي المجتمع متعدد الثقافات حيث تعيش الثقافتان أ وب جنباً إلى جنب يجب ألا ينتهك احتشام المجموعة ب تقاليد المجموعة أ<sup>6</sup>. من الواضح، إذا كانت النسبية صحيحة، أن هدف المصاوبة بالقمه العصبي بالنحافة صحيح تماماً كما مثل أحقية رغبة جارتها لها بأن تبقى على قيد الحياة، لذلك لا يحق لهم أن يجبروها على وجهة نظرهم.

النسبية عقيدة تبدو لأول وهلة معقولة تماماً: احترام آراء الأشخاص الآخرين هدف جدير تماماً بالثناء، وفي الحقيقة أن بعض عواقيها خبيثة إلى درجة أن كل من سيكون غاسلاً للدماغ

يجب أن يتبناها بشغف. بتطبيقها على مسرح السياسة الدولية، فإنها كانت أساس إصرار الغرب على أنه يجب أن يقف جانباً حين تخوض دول مثل كوريا الشمالية، وأوغندا، والكونغو، طرقها في إهلاك رعاياها، واضطهادهم، وتعذيبهم، وفي بعض الحالات غسيل دماغهم (فكر في الأطفال الجنود المرؤعين لجيش الرب للمقاومة في أوغندا، على سبيل المثال).

وبتطبيقها على الأفراد الذين يعانون القمه العصبي أو المشكلات العصبية الأخرى، تؤدي النسبية إلى موقف - كما وصفنا أعلاه - يجب فيه احترام الخيار الشخصي حتى عندما تكون فيه الخيارات المتخذة مؤذية بوضوح، لكن عملياً نميل إلى الشعور أن ذلك خطأ، وأن لدينا التزاماً أخلاقياً للتدخل، ونحن نحل هذه المعضلة فعلياً باستثناء أفراد معينين من المطالبات التي ينادي بها النسبيون، بأن كل وجهة نظر لها مصداقيتها الخاصة. يكون ذلك بوسمهم بأنهم مرضى عقليون، وتجريدهم من جميع المسؤوليات الشخصية؛ إذا لم يستطيعوا اتخاذ قراراتهم الخاصة عندها يصبح مقبولاً أخلاقياً للآخرين أن يتحكموا فيهم. كما رأينا في الفصل الرابع، فإن هذه حجة مستعملة لتسويغ غسيل الدماغ: هذا المنطق مشبوّه جداً: قد يقوم المريض عقلياً بخيار سيئ في ناحية واحدة من حياته، لكن ذلك لا يعني أنه غير قادر على القيام بأي خيار، فضلاً عن أنه أيضاً خطر جداً؛ حيث إنه يشجع على المداخلات الجبرية للتعامل مع المرض العقلي، أخيراً فهي تعزل المريض عقلياً عن المجتمع، فتجعلهم مجموعة خارجية، بكل ما يتبع ذلك من العواقب السلبية، ليس أقلها على صحتهم العقلية والجسدية التي يتضمنها.

ليست العواقب البغيضة المشكلات الوحيدة مع حجج النسبيين كما يشير المنظر السياسي ستيفن لوكس Steven Lukes، فهناك أيضاً مزيد من الاعتراضات النظرية عليها، أحدها هي أنها تعتمد على فهم خطأ للثقافة وغير قابل للتطبيق على أرض الواقع. إن الثقافات ليست صناديق لا نوافذ لها، كما يقول الفيلسوف والمؤرخ البريطاني برلين؛ إنها دائماً أنظمة مفتوحة وساحات للنزاع والتباين والتهمين والتلاقح البيئي، وهي ساحات حدودها غامضة بكل تأكيد، وعلينا أن لا ننسى أبداً أن التصور التبسيطي للتماسك الداخلي للثقافة وتمايزها عن أي ثقافة أخرى تروجه دائماً جهات مصلحة.

لوكس، المتحررون وأكلو لحوم البشر، الصفحة 19-20.

Lukes, Liberals and Cannibals, pp. 19-20

الأشخاص الذين يسعون لتمايز الثقافات لهم جدول أعمال للقيام بذلك، والأكثر من ذلك، النسبية «لا يمكنها أن تفسر ممارسة النقد الأخلاقي ضمن الثقافات ومن خلالها»<sup>7</sup>، وقول (جميع الثقافات متساوية) لا يحل مشكلات الصراع الأخلاقي بينها (إلا إذ أضاف المرء (لكن بعضها

أكثر تساويًا من الآخرين)). لانزال أمام أعضاء المجتمع (ب)، البؤساء المجبرين على تحمل رائحة الرضع المشويين.

تستخف النسبية بأهمية الحقيقة البديهية بأن كلاً من الثقافتين أوب مصنوع من البشر، والبشر يمكن أن يتصرفوا بعدد غريب من الطرائق، لكن ذلك لا يعني أن قوى العقل الأساسية تختلف في تكساس عن طهران. قد يختلف الأفراد طبعاً في كيفية ترتيب أهدافهم الأساسية، لكن درجة التوافق على ما هي هذه الأهداف كبيرة على الأغلب. يدافع جون ميلتون John Milton في كتابه مجمع الحكماء عن حرية النشر، في حين يفضل توماس هوبز Thomas Hobbes الذي هزته الحرب الأهلية البريطانية، الأمن على الحرية في كتابه الملتف وحش بحري في التوراة، لكن كلاً من الكاتبين متمسك بكل من هاتين القيمتين بشدة. لأدمغة وأجسام البشر تشابه عام في كل من التكوين والأداء، وهذا هو السبب في أننا نستطيع ترجمة اللغات أو (إذا أخذنا المثال المستعمل في الفصل التاسع) نفهم وصف الخوف لدى كل من إسخيلوس Aeschylus وبوPoe. يقدر البشر في جميع أنحاء العالم المتعة، والسعادة، والحرية، ويكرهون الألم، والأسى، والتحكم في الآخرين، ويعاملون الأقارب عادة أفضل من الغرباء، ويبتسمون لأصدقائهم، ويحزنون لموتهم. والقتل، والتعذيب، والتشويه، محرمة عادة إلا في أحوال منضبطة بدقة (مثلاً في الطقوس)، ومعظم الضحايا ليسوا أعضاء في المجموعة الداخلية. مثل المحرمات، فإن الأهداف المجتمعية واسعة الانتشار مثل الحرية والسعادة قد تطورت على مدى قرون من عيش البشر معاً. تأقلمت الأفكار مع البيئة الاجتماعية -بما يفيد البشر- أو تلاشت؛ لذلك فالتوقع منها أن تعكس بدقة جيدة ما يريده معظم الناس.

لاحظوا استعمالنا للنوع (معظم الناس)، (عادة)؛ ذلك لأن الفروق الفردية لها علاقة بالأمر، لأن الأشخاص المختلفين سيكون لديهم (لمحة عن القيم) (مثل ملتون Milton وهوبز Hobbes)، وحتى لو كانت ملامح شخصين متماثلة فإنه قد يوجد تضارب في القيم بينهما، كأن يكون كل منهما يحترم حقوق الحياة والملكية، لكن يجب أن يسرق واحد منهما من الآخر ليتمكن من العيش. على مستوى الأفراد فإن أفكار القيم مثل الحرية تستقى من أمثلة محددة: الحرية في إيجاد عمل، أو لزيارة الأصدقاء، أو لتغيير العالم بطرائق مختلفة، ومع الانتقال من الأفراد إلى المجموعات، من العائلات إلى الجيران إلى الأمم، تصبح الأفكار أكثر تجريباً، أكثر تأثيرية، تفقد النوعية والتعريف، لكنها يمكن أن تُرجع إلى التجارب الفردية (أحياناً انفعالية جداً)، وهذه التجارب هي التي تعطي الأفكار الأثرية قوتها على تجنيد الأتباع.

كما بحثنا في الفصل التاسع، الكائنات البشرية مخلوقات يقوّمون الأشياء بطبعهم، وعندما يطلب من الفرد أن يقوّم، جيداً أو سيئاً، فكرة معينة (مثلاً العيش حرّاً من التعذيب، أو أن تُغش) فإنه سيجد المهمة عادة غير مثيرة للإشكال، ولكن آلية تلخيص جميع الكائنات البشرية في مجموعة لتوليد فكرة أثرية تتجاهل كثيراً جداً من الفروق الشخصية بحيث تنشأ عواقب سيئة الحظ: لا يمكن ببساطة تقويم الأفكار الأثرية بجيدة وسيئة. (التحكّم في التفكير جيد إذا كنت تحاول تعليم طفل، وليست جيدة كثيراً عندما تشعر بأنك أسوأ حالاً عندما تتلقى مكاملة من مندوب مبيعات). بدلاً من التورط في محاولات لا طائل منها لفرض نظام تقويمي على حالة أميبية لا شكل محدد لها من الأفكار الأثرية، الخطة البديلة هي محاولة تقليل، ليس انتشار الأفكار الأثرية نفسها، وإنما آثارها المؤذية. كيف نستطيع أن نحقق ذلك؟ باستعمال طرائق قد استعملها الإنسان على الدوام؛ طرائق السياسة.

## التماسك الاجتماعي

«لا أحد جزيرة كاملة لذاته».

دون Donne، العبادات في الحالات الطارئة، (التأمل السادس عشر).

Donne, Devotions upon Emergent Occasions, 'XVII Meditation'

مهما كانت خلفيات البشر الثقافية، فإن الغالبية العظمى منهم تمضي سنين حياتها الأولى وهي تتعلم كيف تكون اجتماعية. ويتعلمون ما يجب أن يتوقعوه من الأشخاص الآخرين، وما الذي يجب أن يفعلوه، وما الذي يجب ألا يفعلوه، من يمكن أن يصنّف بأنه (نحن) ومن بأنه (هم). أحد الآثار المهمة للحياة الاجتماعية هو بناء شبكات معرفية متبّطة ترتبط بسلوكيات اجتماعية غير مقبولة. على سبيل المثال، كما يلاحظ وليام ميلر William Miller: «أي والدة تعرف أن الأطفال بعمر سنة أو سنتين لا يبدون أي اشمئزاز من الغائط وانبعاثات الجسم، ويمكنهم أن يبقوا منيعين بسعادة من الاشمئزاز الذي يتوق الأهل جداً لأن يفرسوه فيهم»<sup>8</sup>، يجادل ميلر Miller بأن «الشعور بالاشمئزاز إنساني، ويضفي طابعاً إنسانياً»؛ ومع ذلك «يحتاج الاشمئزاز حيزاً للحركة». والشيء نفسه يصح بالنسبة إلى المحرمات الاجتماعية، مثل القتل، والتعذيب والأشكال الشديدة الأخرى من الأذى.

تكون الشبكات المعرفية لدى معظم الأشخاص، المتشكلة في التعليم الاجتماعي الباكر، حواجز قوية لمنع القيام بأذى كبير<sup>9</sup>، إنها توفر عتبة لا يمكن تجاوزها إلا من قبل عواطف قوية

جداً. ولكن - كما رأينا في الفصل الثاني - يمكن أن تضعف عضوية مجموعة ما، خاصة مجموعة متماسكة بإحكام (مثل عائلة مانسون Manson)، القيود المثبطة وتعطي طاقة عاطفية إضافية لخرق الحواجز. تنقص استقلالية الأفراد الأعضاء مع زيادة عملها فيما يسميه ستانلي ميلغرام Stanley Milgram الحالة العالمية (انظر الفصل الرابع). لتقليل فرص حدوث ذلك، يجب تقوية الشبكات المعرفية المثبطة وإضعاف تماسك المجموعة. ومن الأساليب لذلك إنقاص التكلفة التي يتحملها عضو المجموعة عندما يتركها، والتي قد تراوح بين الإزعاج والنفى والتهديد بالقتل، بالإصرار على أن تعمل جميع المجموعات ضمن إطار قانوني يدعم حقوق الإنسان الفردية. طريقة أخرى هي التأكد أن أعضاء المجموعة هم أيضاً أعضاء في مجموعات أخرى؛ مثلاً في نظام التعليم العام أو في مكان عمل، وهو ما يعرضهم لوجهات نظر أخرى. أما أسوأ اختيار، كما اكتشفت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية في جونزتاون Jonestown - ثم تعلمته مرة أخرى كاملاً من جديد في واكو، تكساس - فهو الإصرار على مواجهة المجموعة والتسلط عليها؛ إن تحويل نفسك لعدو واضح القوة طريقة ممتازة لدعم تماسك المجموعة.

المشكلة الثانية في مهاجمة المجموعات مباشرة هي خطر (تصريف الرضيع مع ماء حوض الحمام). ليست الأفكار الأثيرية جميعها سامة، فيمكنها أن تقيد المجتمع أحياناً إذا استطاعت الحصول على اعتراف كاف، والمطلوب هو إنقاص العواقب المؤذية لأدنى حد مع إبقاء المجال لازدهار الأفكار المفيدة. تثير المحاججة في النسبية التي بحثناها سابقاً نقطة مهمة: كثيراً ما تضطهد مجموعات من قبل مجموعات أخرى، لكن طريقة إنصاف هذه المطالم ليست بالتخلي عن حقوق معينة لمصلحة مجموعات أخرى (حماية حق المجموعة أ في شوي الأطفال من اعتراض المجموعة ب)؛ لأن ذلك يؤدي حتماً إلى مزيد من الظلم على أعضاء كل من المجموعتين الداخلية والخارجية، إضافة إلى تكاثر المجموعات المتنافسة على المزايا. إذا سمح لك عضو من المجموعة أبأن تنجو بقلتك في القتل أو الإساءات الأخرى، فإن الذين ليسوا أعضاء في المجموعة سوف يريدون تشكيل مجموعات خاصة بهم، ولو كان فقط لحماية أنفسهم. في الوقت نفسه، حين يرى أعضاء المجموعة أن مزاياهم قد تآكلت، فإنهم سيتصرفون بطريقة دفاعية، فيزيدون من تماسك مجموعتهم الخاصة وينظرون إلى أعضاء المجموعات الأخرى بنظرة سلبية ونمطية، والأمر كذلك. تنافس مجموعات أكثر على موارد محدودة، ومع إلغاء التفكير الشمولي أكثر فأكثر، فسيصبح عدم الثقة بين المجموعات أسوأ على الأغلب، وليس أحسن.

أظهر الفيلسوف السياسي برايان باري Brian Barry بلباقة، في انتقاده للتعددية الثقافية، في كتابه *الثقافة والمساواة Culture and Equality*، أن تقديم الحوافز لعضوية مجموعة (وهي حركة لن تنقص بالطبع تماسك المجموعة) ليست أفضل طريقة لإيقاف الإساءات على نمط (ارتكاب المجموعة) الذي وصفناه في هذا الكتاب. بدلاً من ذلك يجب أن نسعى إلى أن إضعاف قبضة التفكير الشمولي؛ بتقوية الحقوق الأساسية للأفراد، بحيث لا يكون لأي مجموعة مزايا خاصة<sup>10</sup>، ويجب أن نسعى للتأكد بأن المجموعات تبقى خاضعة للقانون، سواء كان الفرد عضواً في المجموعة أم لا، ويجب أن نطالب أن يكون أي من أمثال هذه العقائد مفتوحاً للنقاش العام، وأن صوت كل مواطن له قيمته بالتساوي، وأن تكاليف ترك المجموعة ليست طائلة، وأنه لا يسمح لأي مجموعة بأن تفرض إرادتها على الذين لم يعطوا -وبيقوا- موافقة عن علم. أخيراً، لأننا نعرف أننا نستطيع تغيير أنفسنا وتغيير الآخرين بتغيير المعتقدات، ولأننا نعرف أن أفضل طريقة لمهاجمة الأفكار هي بأفكار أخرى، فإننا يجب أن نجري مناظرات عامة، ونعلم، ونحتفي بفضائل الأفكار المضادة للشمولية، إضافة إلى التحذير من أولئك الذين يمكن إظهار أذاهم. يجب أن نمجد الحرية وقوة القدرة البشرية، وفكرة أن البشر هم غايات في أنفسهم وليسوا أبداً مجرد وسائل، وقيمة تعلم التفكير وتحليل المعلومات بكفاءة، والتعقيد الذي لا يمكن إنقاصه ولا قمعه لكل من التجربة البشرية والأفكار التي نقدِّرها. الحرية Freedom، والقدرات Agency، غايات لا وسائل Ends-not-means، والتفكير Thinking، والتعقيد Complexity. دعوني للتسهيل، وللتذكير بتشبيه العقول بالماس الذي استخدمته نقد النظرية الديكارتية الثنائية (الجوهر الروحي السرمدي والجوهر المادي (الفاني)، أعيد ترتيب الكلمات بالانجليزية) (Freedom, Agency, Complexity, Ends, thinking) ذلك طريقة الأسلوب FACET اختصاراً. لمعرفة لماذا يفيدنا مثل هذا الأسلوب ضد رعب غسيل الدماغ، علينا أن نتذكر الدرس من الفصل الأول، بأن غسيل الدماغ يبدأ بالتفكير الشمولي.

## تغيير سياساتنا

«للحرية ألف سحر تبديه،

والعبيد، مهما كانوا راضين، لا يعرفونها أبداً.»

وليام كاوبر William Cowper، حديث الطاولة.

ها نحن نعود للمرة الأخيرة لما وضعه روبرت ليفتون Robert Lifton من العناوين الثمانية التي تميز المذاهب الفكرية الشمولية: السيطرة على المحيط، والتلاعب الغيبي، والحاجة إلى النقاء، وعقيدة الاعتراف، والعلم المقدس، وتحميل اللغة، وأصالة العقيدة على الفرد، وسلب الوجود (انظر الجدول 1، صفحة 35). دعونا ننظر في كل من هذه العناوين بدوره لنرى كيف يمكن أن يساعدنا أسلوب FACET.

### السيطرة على المحيط

يؤكد أسلوب FACET (مقاييس الاتجاهات وهي طريقة تستخدم في العلوم السلوكية لترتيب الملاحظات وتصنيفها وتحليلها تجريبياً) ليس فقط على أفضلية حقوق الفرد على المجموعة، وإنما على القدرات الفردية، بتشجيع تطوير التفكير الناقد، وبالنظر إلى الثقافات، مثلها مثل المجموعات الأخرى، على أنها غير متجانسة ومثقبة بدلاً من أن تكون مغلقة ومتماسكة، فإن هذا الأسلوب يميل إلى إضعاف تماسك المجموعة بدلاً من تقويته، ومن ثم يقلل احتمال أن تكون المجموعة قادرة على ممارسة السيطرة على المحيط. تشجيع الناس على النظر إلى أنفسهم على أنهم قادرون مع امتلاك الحرية والقوة لتغيير حياتهم يجعلهم أيضاً أكثر احتمالاً لتحدي نمط التفكير الشمولي الذي لا ينظر إليهم على أنهم غايات، وإنما وسائل لتحقيق هدف، ولتحدي التعدي على حريتهم الشخصية.

### التلاعب الغيبي

مرة أخرى، الشعور المقوّى بالحرية مفيد هنا، فمن الصعب على غاسل الدماغ أن يحرض عواطف قوية عندما تستجيب الضحية المحتملة بارتكاس سريع بمفاعلة قوية، الأصعب حتى هو خداعهم بالتفكير أن تلك العواطف عفوية، كما يتطلب التلاعب الغيبي. مهارات التفكير الناقد مفيدة أيضاً، حيث إنها تسمح للأشخاص أن يفهموا معتقداتهم الخاصة وحوافزهم فهمًا أفضل، ومن ثم يعرفون أي منها معتقداتهم، وأي منها مدفوعة من قبل غاسل الدماغ. تذكرنا تشبيه الأدمغة بالحدائق في الفصل الثاني عشر، حيث تكون الحدائق المعنتى بها جيداً أصعب لأن يعاد تصميمها. إذا كان الدماغ واضحاً فيما يؤمن ولا يؤمن به، فإن فرض أفكار جديدة عليه يكون أكثر صعوبة.

## الحاجة إلى النقاء

يحتفي أسلوب FACET بالتعقيد كفضيلة، وليس العكس، أو بأقل الأحوال يقبله كواقع في الطبيعة. النقاء ممتاز إذا كنت في مهنة بيع الألبسة، لكن لا يوجد شيء اسمه كائن بشري نقي، أو مواطن مثالي، أو عضو مجموعة مثالي. الكائنات البشرية ببساطة أعقد جداً، ومتغيرة أكثر، من أن توضع -أو تبقى- في التصنيف المبسطة التي تبتكرها الشمولية، وهذا يجعل نظرة الحاجة إلى النقاء التي تنظر في تصانيف مثل المجموعة الداخلية والمجموعة الخارجية وكأن لها شيئاً من الحقيقة المطلقة، نظرة سخيفة. ليس لها مثل هذه القوة؛ إنها أفكار، وليست حقائق. إذاً، كيف يمكنها بأي شكل من الأشكال، كما يتطلب السعي للنقاء، أن تبرر هدر أي نفس بشرية؟ تتعطش الحاجة إلى النقاء إلى أفكار أثرية بسيطة، في حين يذكرنا أسلوب FACET بمخاطر التبسيط المفرط.

## عقيدة الاعتراف

بإقراره بتعقيد الإنسان يقر أسلوب FACET بعمق الشخصيات الفردية والفروق بينها، كما أنه يحتفي أيضاً بالحرية؛ ومن بينها حرية عدم كشف أفكارك كلها إذا كان ذلك خيارك. بتأكيد القدرات ومهارات التفكير الناقد، فإنه يحث المواطنين أيضاً على النظر من خلال كره الشمولية، وتحدي هذا الكره، للعقول الخاصة المستقلة الذي يقف وراء مبدأ عقيدة الاعتراف.

## العلم المقدس

أسلوب FACET عملية، يوجهها مبدأ (المحاولة والخطأ)، مثل العلم، فإنه يفحص نفسه مقابل ما ينجح، مستعملاً الواقع لرسم شكل مبادئه على أساس حالة ثم حالة. التفكير الشمولي، على العكس من ذلك، يجعل الحقيقة خاضعة للمبدأ، ومبدأ حالة ثم حالة العملي خاضعاً للسلطة المطلقة، والفرد خاضعاً للمجموعة. النسبية، من حيث إنها تجادل بأن الفروق الثقافية تفرع تشابهات أساسية، تعتمد على أفكار شمولية مثل قوة المجموعة، وهذا يعني أنها تفترض افتراضاً، يتحدها ستيفن لوكس Steven Lukes، بأن (الثقافات) متجانسة كمجموعات متماسكة جداً، لكنها ليست كذلك، كما يتضح بمقارنتها بالمجموعات المتماسكة حقاً مثل عائلة مانسون Manson.

الشموليون مولعون بالأشياء المطلقة، فالسلطة -على سبيل المثال- يجب أن تكون مطلقة إذا كنا نريدها صحيحة. يعد العثور على ثقافة واحدة تمارس وأد الأطفال قاتلاً للدعاء بأن هذه الممارسات

غير صحيحة أخلاقياً (في أي وقت، أي مكان)، لأن هذا الادعاء يعتمد على شيء من السلطة الأخلاقية التي يفترض أنها تسري على كامل البشرية (القتل خطأ لأن الهنا قال ذلك، أو التربية، أو المنطق، أو أحياناً حتى العلم). من دون وجود بعض من أمثال هذه السلطة الأخلاقية، كما يحتاج المفكرون الشموليون، فإنه لا يوجد لدينا سبب لأن نفضل ادعاء ثقافياً على آخر، لكن هل هذا صحيح؟

ليس بالضرورة. إذا لم يعد بالإمكان الاعتماد على السلطة المطلقة، فقد نكون قادرين على استبدال نقائنها شبه القانوني بمدخلة إحصائية أكثر فوضوية وأكثر عملية؛ يمكن أن تكون التنبؤات الإحصائية مفيدة مثل التنبؤات المشتقة من المعادلات أو أكثر منها، والنماذج الرياضية مدعومة بقوة المنطق؛ والحقائق التي تجزم بها صحيحة في جميع الأحوال حالما تقبل بديهااتها الأساسية، ولكن في الحالات المعقدة لا يستطيعون وضع جميع المتغيرات بصورة كافية في نموذج. القانون (الإحصائي) الذي يقول إن التدخين المزمن يصيب الأشخاص بالمرض صحيح من حيث إن الأشخاص الذين يدخنون لسنوات أكثر احتمالاً بكثير للإصابة بمرض من غير المدخنين. ملاحظة أن هناك أشخاصاً يدخنون لسنوات دون أن يمرضوا لا يعني أن التدخين لا يسبب الأمراض، إنه يعني فقط أن قابلية الإصابة بالمرض أقل في بعض الأفراد المحظوظين.

كما في الرياضيات، كذلك الأمر في الأخلاق؛ تبدو بعض المبادئ الأخلاقية متمسكاً بها بصورة واسعة جداً في المجتمعات البشرية. حقيقة أن بعض المجانين يستمتعون بموجة من القتل المتسلسل، لا يقدح بمصدقية الملاحظة بأن الناس لا يوافقون عادة على القتل أو سفاح الأقارب. بعبارة أخرى، يجب ألا نطالب بنقاوة مطلقة، ودقة في كل حالة منفردة، كي تكون الملاحظة مفيدة. تشابه حاجات الإنسان الأساسية يعني أن ما ينجح مع معظمنا سوف ينجح غالباً معك (والعكس بالعكس)، ولذلك يمكن تقويم المعتقدات (مهما كانت ثقافة منشئها) حسب كونها تؤدي أو لا تؤدي إما الأفراد الذين يؤمنون بها أو الأشخاص الآخرين؛ وهذا عملياً ما نميل إلى القيام به.

### تحميل اللغة

يساعد أسلوب المظهر بتقديره للتفكير النقدي المواطنين على أن يصبحوا أكثر إدراكاً لكيفية تلاعب فنيي التأثير باللغة، بتأكيد الحرية والقدرات، فإنه يعطيهم الثقة لتحدي التفسيرات المبسطة والأفكار الشمولية، ومن ثم يجعل السيطرة على التفكير أكثر صعوبة.

## أصالة العقيدة على الفرد

يشجع أسلوب المظهر المواطنين على ممارسة ما يحبون، ما دام أنهم يتقيدون بقيود معينة، ويحدد هذه القيود إلى أقل قدر ممكن، هادفاً إلى تقليص كرة سيطرة الدولة (أو المجموعات الأخرى)، وتعظيم حريات الفرد (وليس الجماعة). لا يدعي أسلوب المظهر أننا جميعاً شيء واحد؛ بل إنه يقول فقط إننا يجب أن نعامل بالطريقة نفسها (مواطنين) بصرف النظر عن أي من المجموعات يصدف أننا ننتمي إليها؛ لذلك فإنه يعارض بشدة أي عقيدة تدعي أن أفكاراً معينة أو المجموعات التي تحمل هذه الأفكار يجب أن يكون لها أفضلية على الكائنات البشرية الراضة لها. غسيل الدماغ الذي يفرض الأفكار سواء بالقوة، أو التقنية، أو التسلل، غير مرضي عنه أبداً في أسلوب FACET.

بالإصرار على أن الأفكار تأخذ مرتبة ثانية بعد التجربة البشرية الفردية فإن أسلوب FACET يجعل الأفكار خاضعة للواقع، ولذلك فإنه يعكس الخطأ الفردية الأكثر احتمالاً لأن تحقق بقاء الدماغ: المراقبة الدقيقة للبيئة، وتقبلها، متوازنة بشبكة معرفية معرّفة جيداً لكنها مرنة. يشبه التفكير الشمولي الذي يعكس الترتيب ليمجد الأفكار الأثيرية، الدماغ العاطل الذي يكون تجاهله المتزايد للعالم الخارجي قاتلاً في كثير من الأحيان. حتى في الغرب المرفه، المفترض أنه موطن الديمقراطية التحررية، رأينا مجتمعات كاملة تصبح مهووسة بالتفكير الشمولي، بنتائج كارثية. نعترف أن أسلوب FACET، لأنه معقد وعملي، أصعب تطبيقاً من النماذج الشمولية، لكنه حتى الآن أفضل بالنسبة إلينا، على الأقل لأنه يعكس بدقة أكثر الحال الذي العالم عليه<sup>11</sup>.

## سلب الوجود

كما ذكرت سابقاً، الأشخاص الذين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أحرار أقل احتمالاً لأن يخضعوا لمدخلة سلطوية. إذا لم يكونوا مقتنعين بفكرة أن الغاية تبرر الوسيلة، وإذا كان لديهم المهارات لكشف العيوب في المحاججات الشمولية، فإنهم أقل احتمالاً لأن يتخلوا عن السلطة بالمقام الأول. حتى أكثر الحكام الشموليين قساوة يحتاج إلى الدعم الشعبي لتحقيق مستوى التحكم الذي يؤدي إلى الإعدامات الجماعية. لن يزيل أسلوب FACET الدعم بالكامل، لكنه سوف يضعفه.

## لِمَ يُتَبَنَّى أُسْلُوبُ FACET؟

ركز بحثنا لأسلوب FACET حتى الآن على الأفكار، ولكن الأفكار - كما أظهر هذا الكتاب مرارًا وتكرارًا - تتطلب حافزًا لتعطيتها القوة. الأفكار الأثيرية، أقوى الأفكار على الإطلاق، تغذيها عواطف قوية إلى درجة أنها يمكن أن تحفز شخصًا ما على القتل. أين يقع أسلوب FACET إذاً على معايير التحفيز؟ الجواب هو أنه ناجح هنا أيضًا؛ إنه يعطي الأفراد حريات أكثر، ومن ثم كما جادل الاقتصادي أمارتيا سين (Amartya sen) يدعم تطوره وجود حياة لهم، وهو ما يجعلهم أكثر سعادة<sup>12</sup>. إنه يعزز القدرات البشرية، وهو ما يجعل المواطنين يشعرون بأنهم يتحكمون في أحوالهم. ويقبل التعقيد على أنه فرصة طبيعية بدلاً من النظر إليه على أنه تهديد للعقائد المفرطة التبسيط. ويعامل الأشخاص على أنهم غايات، وليسوا مجرد وسائل، ومن ثم يزيد من شعورهم بقيمة الذات، وما يأتي معه من زيادة القدرة على التوقف والتفكير بطريقة أكثر مرحًا، وتسامحًا، ويعطيهم شعورًا بالتمكين. أخيرًا فإن أسلوب FACET هو حل أفضل على المدى الطويل للكوكب المتزايد الازدحام من الأفكار الشمولية، التي تعتمد في كثير من الأحيان على القتل، وغسيل الدماغ، أو على الإساءة للناس. قد يكون للإساءة مزايا للذين يفكرون على المدى القصير من ذوي العقول ضعيفة الصيانة، لكن هذه المزايا تتضاءل مع الوقت في عالم يجعل فيه الاتصال المشترك المتزايد العدالة، والتدخل الدولي، أو (على المستوى الشخصي) الأقارب الراغبين بالانتقام، أصعب فأصعب تجنبًا.

## تحقيق الأمر: تطبيق أسلوب FACET

يتطلب تطبيق أسلوب FACET نقاشًا مفتوحًا، ثقة شعبية بالمختصين والسلطات، وآليات - مثل صحافة وقضاء حرين ومستقلين - للحفاظ على الثقة، وتعزيز الانفتاح، ولجم الانجراف نحو السلطة الشمولية المغرية جدًا لكثير من الحكومات؛ إنه يتطلب تعليمًا أفضل وتعزيزًا قويًا للقوانين الداعمة للحريات الفردية. يتطلب منا قبول أن الكائنات البشرية لها عقول من طين، وليس من ألماس، وأننا راسخون في الوجود، عالقون في تشابكات معقدة من السببية، لكننا لسنا عالقين إلى درجة أننا عاجزون بالكلية، يجب أن نقبل ما يعلمه لنا علم السيطرة على التفكير؛ من أن البشر يمكنهم أن يتغيروا - ويستطيعون تغيير أنفسهم - إذا أعطوا الحوافز، والأفكار، والفرص الصحيحة. أحيانًا تكون المهمة صعبة إلى درجة المستحيل، لكن ذلك لا يعني أن نهدم فكرة أننا

قابلون للإصلاح، وينطبق ذلك على المجموعات الخارجية إضافة إلى المجموعات الداخلية، للمرضى النفسيين والمفجرين الانتحاريين، إضافة إلى الطبقات المتوسطة المحترمة.

لا شيء من هذا ثوري؛ أسلوب FACET متأصل جيداً في تقاليد الديمقراطيات المتحررة؛ لا يوجد شيء جديد فيها من تلك الناحية، لكن الديمقراطيات المتحررة طرحت جانباً قبل اليوم بالدول الشمولية، ويمكن أن تطرح مرة أخرى. لن تكون أبداً التقاليد التي تؤكد الحرية والتسامح آمنة جداً في مكانها بحيث يسمح لنا ذلك أن نعد رفايتها مضمونة. حتى في أفضل حالاتها، فإن الديمقراطيات المتحررة قاصرة كثيراً عما يتطلبه أسلوب FACET.

يقول الساخرون إن هذا (فطيرة في السماء)، ويقول النسيبيون إننا نفرض معتقداتنا على الأشخاص الآخرين، ويقول جناح اليمين إنها سخافة تحررية ضعيفة. مع أنني أحترم فولتير Voltaire في حديثه عن حرية الرأي، فلا بد أنه قد أصبح واضحاً الآن أن هذه الاستجابات مضللة<sup>13</sup>. يمكن أن يسمى أسلوب FACET أي شيء سوى (فطيرة في السماء)، إنه يبتعد باستحياء عن التفكير الشمولي، بنظرته المتعالية قياس واحد يناسب الجميع، ويتجه إلى إقرار التنوع البشري الذي يعدل شكل الأفكار لتلائم الوضع. الأكثر من ذلك، لدينا دليل واضح أن زيادة حرية البشر تزيد جودة الحياة (لقراءة مفصلة عن هذه الحجة، اقرأ كتاب أمارتيا سين Amartya Sen، التطوير كحرية، أو قارن مسرات العيش في التسعينيات بين بريطانيا وبوسنيا، أو النرويج وكوريا الشمالية). يبدو القول بأن الناس لا يريدون الحقوق والمسرات التي تتمتع بها في الغرب مهيناً وأناثياً في آن واحد. مع كوني متفائلة ساذجة وتحررية ضعيفة، أعتقد أننا إما أوجدنا مقدماً حلاً قابلاً للتطبيق لبعض أسوأ مشكلات العالم، أو نستطيع أن نوجد. هل لدينا الشجاعة السياسية لتطبيق هذه الأجوبة؟ ذلك أمر آخر، لكنني أعتقد مع ذلك أنه ستجرب حلول ستنتج في نهاية المطاف، ليس نجاحاً مثالياً بالطبع، إذ إن الكمال يتجاوزنا، ولكن بما يكفي لقلب التوازن بعيداً عن الإرهاب بجميع أشكاله. يعود عدد الأشخاص الذين سيموتون بالعنف، قبل أن نجد الإرادة لفرض تلك الحلول، جزئياً إلينا.

كما أن تطبيق أسلوب FACET لا يعني فرض خبث الرأسمالية الاستهلاكية الغربية على جماهير غير راغبة بها. ومعاملة الكائنات البشرية على أنهم غايات بحد ذاتهم يتضمن إظهار الاحترام لهم، وإعطاءهم مزيداً من الحرية، وعدم الإصرار على أن يفعلوا ما نفعله. ولا تعني حقوق الإنسان الهامبرغر الأمريكي. يتوافق أسلوب FACET أيضاً مع تفسيرات معينة لمعظم

ديانات العالم، إذا كان ذلك موقفك. يجب إعادة تفسير التفسيرات غير المتوافقة، أو إلزائها. كون الشيء ديناً، أو ثقافة، أو فكرة، لا يكفي وحده لتسويغ السلوك الضغين. هناك أفكار تستحق أن تمحى مباشرة من الذخيرة البشرية، وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل. عندما يصرد دين، أو ثقافة، أو تقليد (ومنها التقاليد العلمية) على حقه في الإيذاء، وعلى حقه في معاملة الكائنات البشرية على أنها وسائل لغاية مذهبية فكرية ما، فإن المسؤولية تقع علينا - بأقل الأحوال - بأن نأتي بمسوغ أكثر قبولاً من العقيدة، أو السلطة الدينية، أو التقاليد<sup>14</sup>. كثيراً ما أستعملت هذه الكلمات كموقفات للحوار، أفكار مبتذلة لإنهاء التفكير (حسب تعبير روبرت ليفتون): لكن سلطتها للقضاء على جميع الحجج تصح فقط إذا لم نتجرأ على مساءلتها. إذا كانت هناك أفكار سيئة للبشر، فدعوها تظهر على الملأ، وتناقش علناً، ويسخر منها حتى تمحى، مهما كان مصدرها. تغيير المناخ السياسي للتقليل من حوافز التفكير بأفكار سيئة - التغطرس الذي يأتي من حتمية (مقدسة)؛ الظلم الذي يجعل المؤمنين يائسين - ليس سهلاً أبداً، لكنه ليس مستحيلاً.

أما عن اتهامه بأنه سخافة تحريرية ضعيفة، فإن أسلوب FACET أبعد بكثير عن أن يكون كذلك. العقيدة التي تستبدل بالسلطة التصرف العملي، لها بعض المضامين القوية. بداية، تتوقع من مواطنيها النضج، ومن ثم تتطلب منهم مقداراً معيناً من الجهد، إنها تتحدى المصالح المُلْتَمَسَة والمكتسبة؛ إنها تتطلب أن تخضع الاعتبارات الثقافية والدينية للحقوق الفردية.

الحفاظ على أجهزة مساءلة مثل وسائل الإعلام المتنوعة والمستقلة، يعني أن الحكومات يمكن أن تودع الشكر، فضلاً عن التملق. دورها هو أن ترتكب الأخطاء ثم توبّخ بسببها من قبل جماهير قد تكون هي نفسها كسولة، وغير مبالية، وغير منظمة بصورة ما، لكنها لا تدع هذه الصفات تحول بينها وبين الانتقاد. إذا كان لأسلوب FACET أن يغني عروضه العالمية، فإن الدول التي تتبناه يجب أن توازن أيضاً بين الاهتمامات المحلية وسياسة خارجية ثابتة، تقود العالم بإعطاء مثال لا بالإملاء.

## الخلاصة والاستنتاجات

«بعض الأوضاع تعطي قوة كبيرة، وتجعل كثيراً من الناس يتصرفون بالطريقة نفسها، ولكن حتى في أسمى الظروف، فإن ماهية الأشخاص، شخصياتهم وقيمهم (وفي حالة المجموعات،

ثقافتهم)، تؤثر في استجابتهم. بعض الناس لن يدخل إلى منزل يحترق لإنقاذ حياة، لكن بعضهم يدخل».

إرفين ستوب Ervin Staub، علم نفس الخير والشر.

Ervin Staub, The Psychology of Good and Evil

يتصرف الناس بدرجة كبيرة بالصورة التي يُتوقع منهم أن يتصرفوا عليها، الدولة التي تتوقع من مواطنيها أن يكونوا أفرادًا متطورين سياسيًا، وناضجين إلى حد معقول، ومسؤولين اجتماعيًا، لديها فرصة أكبر لرعاية هؤلاء المواطنين أكثر من الدول التي تعامل شعبها على أنهم عبيد أو أطفال. التعليم، والإصلاحات الاقتصادية والسياسية، ونشر المعلومات بسخاء عن الناس الآخرين، يمكن أن يساعد على تكوين مواطنين يرون بسرور أن حريتهم مضمونة، وهم مستعدون للمشاركة في مزاياهم على نطاق واسع. ليست المداخلات التحريرية كأسلوب FACET خالية من المشكلات، لكنها أفضل من الأنظمة المنافسة في تشجيع الجريان الحر للمعلومات، وتعزيز جودة الحياة، وتقليل الآثار المؤذية للأفكار الأثرية المتمسك بها بقوة -وهي المشكلة التي يعنى بها هذا الكتاب أساسًا- بحيث تصبح الإساءات مثل غسيل الدماغ أقل حصولًا؛ لقد أخفق التفكير الشمولي مرة تلو مرة في جني المكافآت التي يعد بها أتباعه. محاولة إنقاص جاذبية الأفكار الشمولية تعني توجيه الناس بعيدًا عن الأفكار المضرة مثل حلم التحكم في العقل، والتأكيد بدلاً من ذلك على الحريات الشخصية، وتحدي أولئك الذين يُغرون بتحقيق الحلم.

ليس هناك جديد في أي من هذا. لدينا أو نستطيع القول بسهولة اكتسبنا المهارات، والمعرفة -على الأقل- أكثر مشكلاتنا الاجتماعية إلحاحًا حتى ضمن الموارد الحالية المحدودة (خاصة في العالم النامي). بوجود التحفيز الكافي، والإرادة السياسية الكافية، نستطيع أن نحسن -وإن لم يكن لدرجة الكمال- مجتمعاتنا الخاصة. نستطيع بالتأكيد على الأقل أن نخلص العالم من فظائع مثل معسكرات السجون الكورية، أو جونز تاون Jonestown. إحدى الخطوات تجاه ذلك الهدف هو فهم المعتقدات التي نؤمن وتمسك بها: قدرتها، أخطارها، وكيف نستطيع أن نبدأ بتغييرها.

كان أحد أهدافي في هذا الكتاب هو محاولة إقناعكم بأن غسيل الدماغ هو أكثر من مجرد رفات لشعور بالاضطهاد حدث في الخمسينيات، ومصطلح للإساءة نترشق به عندما نشعر بأننا مهددون بمعتقدات الآخرين. تستمر الطوائف الدينية الملتزمة بشدة، والإرهابيون المتشددون،

ببلائنا، والتفكير بهم بعبارات نمطية يزيد فقط في المشكلة. لا يمكن أن ننبذهم ببساطة ككائنات فضائية؛ لأن الأذى الذي يمكن أن يقوموا به، كما أظهرت أحداث 11/9، لا يتناسب مطلقاً مع حجمهم. للسبب نفسه يجب أن نفهم أن غسيل الدماغ ليس مزحة ولا لغزاً. كان يمكن في السابق فعلاً إقناع الأشخاص الملتزمين بالقانون بملاحقة حلم التحكم بالعقل، حتى إلى درجة ارتكاب الانتحار والقتل. لكن - كما حاولت أن أظهر - إدراكنا المتزايد لكيفية عمل الدماغ، وكيف يتفاعل مع الأدمغة الأخرى، يمكن أن يساعدنا على فهم كيف يمكن أن يحقق غسيل الدماغ مثل هذه النتائج المريعة. مع الفهم تأتي القوة، مهما كانت غير مثالية: القدرة على تغيير عقولنا، وأفعالنا، وسياساتنا بحيث تصبح الأفكار الأثيرية أقل جاذبية وأقل فتكاً. لدينا القوة، ويجب أن نستفيد منها إلى أقصى حد.